المرأة والرجل

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء : ١]

هذه الآية هي صدر سورة النساء الكبرى وسورة النساء الصغرى هي سورة الطلاق ، وهناك سورة سميت باسمِ أُمٍّ نبي وهي سورة مريم ، وسورة أخرى سميت بوصف امرأة من الأنصار وهي خولة بنت ثعلبة وهي سورة المُجَادِلَة ، وما بين ذلك حديثٌ كثيرٌ في القرآن عن المرأة ، تَتَقَاسَمُ هي والرجلُ آياتِ القرآن ، فهي أولًا تَتَقَاسَمُ معه المسؤوليةَ ؛ فالخطاب بـ يا أيها الناس ، وبـ يا أيها الذين آمنوا موجَّهٌ إليهما ، وكلُّ خطاب في القرآن فهو مُوَجَّهٌ إليهما معًا ؛ لأن مسؤوليتهما واحدة في عبادة الله عز وجل ، ولا يختلفان إلا في بعض التفاصيل المتعلقة بخواص كل منهما ، وهي ثانيًا تَتَقَاسَمُ مع الرجل الثوابَ قال تعالى :

﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ ﴾ [النساء : ١٢٤]

وهنا في صدر سورة النساء الكبرى تتحدث الآية عن الاتحاد بين الرجل والمرأة ؛ فكلاهما من أصلٍ واحد ، فهو سبحانه خلق النفسَ الواحدةَ التي هي أبانا آدم ؛ ثم من ضِلَع منه خلق أُمَّنَا حواء ، فكلاهما ينتمي إلى نفسٍ واحدة ، وتتحدث الآية عن الاتصالِ بينهما وقوةِ العلاقة التي ينبني عليها استمرارُ الجنس البشري ﴿ وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾ وهنا من أدب القرآن حذف ما هو معلوم ؛ وتقدير الكلام : خلق منها زوجها ، وزَاوَجَ بينهما فلما تغشَّاهَا وحملت منه بَثَّ منهما رجالًا كثيرًا ونساءًا .

وترتَّبَ على ذلك تكوينُ الأُسَرِ ووجودُ الأَرْحَام ؛ وما يجب من احترام صِلَةِ الأرحام ، ثم تكوينُ الشعوب والقبائل ، فاستمرارُ الجنس البشري بل استمرار الحياة كل ذلك متوقف على العلاقة التي شرعها الله عز وجل بين الرجل والمرأة .

وفي تفاصيل هذه العلاقة يتحدث القرآن عن الزوجة ويسميها السَّكَنَ ﴿ ۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ ﴾ [الأعراف : ١٨٩] ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ ﴾ [الروم : ٢١] فعلاقة الزوجية بينهما أهمُّ أهدافِها وثمارِها هذه السكينةُ التي يَحْظَى بها كلٌّ منهما ويَحْظَى بها الرجلُ على وجه الخصوص ، وهي مرتبطةٌ بالمودةِ والرحمةِ التي يُودِعُهَا اللهُ في قلبِ كلٍّ منهما ، وبدون ذلك لا تتحقق السكينةُ ولا السَّكَنُ ، وتَفْسُدُ الحياةُ ، واقتَضَى استمرارُ الحياة بينهما توزيعَ وظائفِ كلٍّ منهما في هذه الحياة ، فارتبطت معظمُ وظائفِ المرأةِ بالبيتِ والأسرةِ ، وارتبطت وظائفُ الرجلِ بميادين الحياةِ خارجَ البيت ، ولا يمنع هذا أن يكون لكلٍّ منهما نصيبٌ من وظائف الآخر لكن لا على سبيل الأصل ، بل على سبيل الاستثناء ، فالمرأة في القرآن إذا لزم الأمر خرجت من البيت وتحدثت مع الملائكة ومع الأنبياء ، إن البيت قاعدةٌ لَهَا وليس سجنًا لها .

ومن أبدع أساليب القرآن في الحديث عن وظائف كلٍّ من المرأة والرجل صَدْرُ سورةِ الليل ، فتأمل :

﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾ ﴾ [الليل : ١ – ٤] والأخيرة هذه هي سر المسألة كلها وسر الحياة ، فلولا تنوُّع الوظائف وتعدُّد الأدوار ما استقامت الحياة ، ابتداءًا من الظواهر الكونية ، الليل والنهار ؛ فلكل منهما وظيفة وُصِفَتْ بأبلغ عبارةٍ وأَجْمَلِ تشبيهٍ ، ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴾ ، فغَشَيَانُ الليلِ

يُذَكِّرُ السامعَ بالسُّكُون والنَّوْمِ ؛ ﴿ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴾ أي ظَهَرَ وبَانَ ، وهذا يُصَوِّرُ الحركةَ والسَّعْيَ والعَمَلَ ، ﴿ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴾ أي وخَلْقُ الذكر والأنثى ، وفي قراءة ﴿ **والذكر وَٱلْأُنثَىٰٓ** ﴾ كلٌّ منهما له وظيفةٌ في الحياة ، فالأنثى وظيفتها في الحياة تشبه وظيفةَ الليل ، والذكر وظيفته تشبه وظيفةَ النهار ، سِرُّ الحياةِ أنَّ الوظائف شَتَّى متنوعةٌ مختلفة ، فإذا جاء جهال العلمانية وقالوا : كلا لا نقبل هذا التوزيعَ الربانيَّ لِلْوَظَائِفِ وَنَخْلِطُ بين وظائفِ الرجلِ والمرأةِ ، نُخْرِجُ المرأة من بيتها فتُشَارِكُ الرجلَ في وظيفته ، لكنهم لا يستطيعون حَبْسَ الرجل في البيت بَدَلًا من المرأةِ ؛ لأنه لا يستطيع القيامَ بوظائفها كلِّهَا ، هذه الفوضَى يترتَّبُ عليها فسادُ الحياةِ ، وهذا هو ما يريده اليهود الذين يحركون دمى العلمانية ، يريدون إفساد الحياة وتدمير نظام الأسرة ، الذي يترتب عليه تدمير المجتمع كما وصفهم الله ﴿ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [المائدة : ٦٤]

اللهم أرنا الحق حقًّا وارزقنا اتباعه وأرنا الباطل باطلًا وارزقنا اجتنابه وأجرنا من كيد الشياطين .